ولاية الله للمؤمنين

تنبيه: اعلم أن المؤمن قد ترد عليه خواطر التدبير، ولكن الله تعالى لا يدعه لذلك، ولا يتركه لما هنالك، ألم تسمع قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}.

فالحق سبحانه وتعالى، يخرج المؤمنين من ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض، ويقذف بحق تثبيته على باطل اضطرابهم، فيزلزل أركان هو ويهدم بنيانه، كما قال الله تعالى:

{بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق}.

والمؤمن وإن وردت عليه خواطر الاضطراب والتدبير فهي عابرة لا تثبت لها، ومضمحلة لا وجود لها، لأن نور الإيمان قد استقر في قلوب المؤمنين، وأخمدت أنواره نفوسهم، وملأ إشراقه قلوبهم، وشرح ضياؤه صدورهم، فأبى الإيمان المستقر في قلوبهم، أن يسكن معه غيره، وإنما هي سنه وردت على القلوب أمكن فيها ورود طيف التدبير، ثم تتيقظ القلوب فيزول الطيف الذي لا يكون إلا مناما، قال الله تعالى:

{إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون}.

وفي هذه الآية فوائد:

<u>الفائدة الأولى</u>: قوله سبحانه وتعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان

تذكروا فإذا هم مبصرون} دل ذلك على أن أصل أمرهم على وجود السلامة منه، وإن عرض ذلك الطيف، ففي بعض الأحيان تعريفا بما أودع فيهم من ودائع الإيمان.

الفائدة الثانية: قوله تعالى: {إذا مسهم طائف} ولم يقل: إذا أمسكهم، أو أخذهم؟ لأن المس ملامسة من غير تمكن، فأفادت هذه العبارة، أن طيف الهوى لا يتمكن من قلوبهم، بل يماسها مماسة، ولا يتمكن منها إمساكا ولا أخذا كما يصنع بالكافرين، لأن الشيطان يستحوذ على الكافرين، ويختلس اختلاسا من قلوب المؤمنين، حتى تنام العقول الحارسة للقلوب.

فإذا استيقظوا انبعثت من قلوبهم جيوش الاستغفار والذلة والافتقار إلى الله تعالى، فاسترجعوا من الشيطان ما اختلسه، وأخذوا منه ما افترسه. ⇈

الفائدة الثالثة: قوله تعالى {إذا مسهم طائف من الشيطان} فالإشارة ها هنا بالطيف إلى أن الشيطان لا يمكنه أن يأتي إلى القلوب الدائمة اليقظة، لأنه إنما يورد طيف الغفلة والهوى على القلوب في حين منامها بوجود غفلتها، ومن لا نوم له فلا طيف يرد عليه.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: {إذا مسهم طيف} ولم يقل إذا مسهم وارد من الشيطان، أو نحوه، لأن الطيف لا ثبت له ولا وجود له، إنما هو صورة مثالية، ليس لها حقيقة وجودية، فأخبر سبحانه وتعالى بذلك، أن ذلك غير ضار بالمتقين، لأن ما يورده

الشيطان على قلوبهم بمثابة الطيف الذي تراه في منامك، فإذا استيقظت فلا وجود له.
الفائدة الخامسة: قوله تعالى {إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا} ولم يقل ذكروا، إشارة إلى أن الغفلة لا يطردها الذكر مع غفلة القلب، إنما يطردها التذكر والاعتبار، وإن لم تكن الأذكار، لأن الذكر ميدانه اللسان، والتذكر ميدانه القلب. وطيف الهوى لما ورد إنما ورد على القلوب لا على الألسنة، فالذي ينفيه، إنما هو التذكر الذي يحل محله، ويمحق فعله.

الفائدة السادسة: قوله تعالى: {تذكروا} حذف متعلقة ولم يقل تذكروا الجنة، أو النار أو العقوبة، أو غير ذلك.
وإنما حذف متعلق تذكروا لفائدة جليلة، ولذلك: أن التذكر الماحي لطيف الهوى من قلوب المتقين، على حسب مراتب اليقين ومرتبة التقوى، يدخل فيها الأنبياء والرسل والأولياء والصديقون والصالحون والمسلمون.

فتقوى كل أحد (على حسب حاله ومقامه، وكذلك أيضا تذكر كل أحد) على حسب مقامه، فلو ذكر قسما من أقسام التذكر، لم يدخل فيه إلا أهل ذلك القسم. فلو قال تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا العقوبة فإذا هم مبصرون، خرج عنه الذين تذكروا التوبة}. ولو قال: تذكروا سابق الإحسان لخرج منه الذين تذكروا لواحق الامتنان إلى غير ذلك، فأراد الحق سبحانه وتعالى، أن لا يذكر متعلق التذكير ليشمل المراتب كلها فافهم.

الفائدة السابعة: أنه قال سبحانه: {مبصرون} ولم يقل: تذكروا فأبصروا، أو تذكروا ثم أبصروا، أو تذكروا وأبصروا فأما ترك التعبير بالواو: فلأنه كان لا يفيد أن البصرى كانت عن التذكر، والمراد أنها كانت مسببة عنه، ترغيبا للعباد فيها. وأما عدوله عن ثم لأن فيها ما في الواو، من عدم الدلالة على السببية، وفيها أنها كانت تقتضي عكس المضي لما فيها من المهلة. ومراد الحق سبحانه: أن هؤلاء العباد لا تتأخر أبصارهم عن تذكرهم ولم يعبر بالفاء لاقتضائها التعقيب، بل عبر الحق سبحانه بقوله: {تذكروا فإذا هم مبصرون} كأنهم لم يزالوا على ذلك البصرى، ثناء منه سبحانه عليهم وإظهار لوفور المنة إليه لديهم، كما نقول: تذكر زيد المسألة، فإذا هي صحيحة، أي أنها لم تزل صحيحة، وإنها الآن صحيحة، كما رفع العلم بها. كذلك المتقون، ما زالوا مبصرين، ولكن حين ورد طيف الهوى عليهم، غطى على بصيرتهم الثابت نورها فيهم، فلما استيقظوا ذهبت سحابة الغفلة، فأشرقت شمس البصيرة.

الفائدة الثامنة: في هذه الآية ونظائرها توسعة على المتقين، ولطف بالمؤمنين، لأنه لو قال: إن الذين اتقوا لا يمسهم طائف من الشيطان، لخرج من ذلك كل أحد إلا أهل العصمة، فأراد سبحانه وتعالى، أن يوسع دوائر رحمته فقال: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف} ليعلمك أن ورود الطيف عليهم، لا يخرجهم عن ثبوت حكم التقوى لهم، وجريان اسمه عليهم، إذا كانوا كما وصفهم مسرعين بالتذكر راجعين إلى الله بالتبصر.

ومثل هذه الآية، في بسط رجاء العباد والتوسعة عليهم، قوله تعالى: {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين}.

ولم يقل: يحب الذين لا يذنبون لأنه لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا القليل، فعلم الحق سبحانه، ما العباد مركبون عليه من وجود الغفلة، وما تقتضيه النشأة الأولى الإنسانية لكونها ركبت من أمشاج من نوع المخالفة، وقد قال سبحانه وتعالى: {يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفا}.

قال بعض أهل العلم: يعني لا يتمالك عند قيام الشهوة به.

قال تعالى: {هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، وإذ أنتم أجنة}. فلأجل ما علم من إن الخطأ غالب على الإنسان، فتح له باب التوبة ودله عليها، ودعاه إليها، وودعه القبول إذا تاب، والإقبال عليه، إذا رجع إليه وآب.

وقال صلى الله عليه وسلم: (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون}. فأعلمك صلى الله عليه وسلم، أن الخطأ لازم وجودك، بل عين وجودك.

وقال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}. ولم يقل: {والذين لا يعملون الفاحشة}.

وقال سبحانه وتعال: {وإذا ما غضبوا هم يغفرون}. ولم يقل: والذين لا يغضبون.

وقال سبحانه وتعالى: والكاظمين الغيظ، ولم يقل: والذين لا غيظ لهم، فافهم ذلك رحمك الله فهذه أسرار بينة، وأمور متعينة.

الفائدة التاسعة: تبين مراتب المتذكرين من المتقين.

اعلم أن أهل التقوى، إذا مسهم طيف من الشيطان، لا تدعهم تقواهم للإصرار على معصية مولاهم، بل يرجعهم إليه تذكرهم، وتذكرهم على أقسام:

متذكر يتذكر الثواب.

ومتذكر يتذكر العقاب.

ومتذكر يتذكر الوقوف للحساب.

ومتذكر يتذكر ما في ترك المعصية من جزيل الثواب.

ومتذكر يتذكر سابق الإحسان فيستحي من وجود العصيان.

ومتذكر يتذكر لواحق الامتنان فيستحي أن يقابل ذلك بالكفران.

ومتذكر يتذكر قرب الله تعالى منه.

ومتذكر يتذكر إحاطة الحق سبحانه.

ومتذكر يتذكر نظر الحق إليه.

ومتذكر يتذكر معاهدة الله له.

ومتذكر يتذكر فناء لذته وبقاء مطالبته.

ومتذكر يتذكر وبال المخالفة وذلها، فيكون لها تاركا،

ومتذكر يتذكر فوائد الموافقة وعزها فيكون لها سالكا.

ومتذكر يتذكر قيومية الحق به.

ومتذكر يتذكر عظمة الحق وسلطانه.

إلى غير ذلك من تعلقات التذكر، وهي: لا حصر لها، وإنما ذكرنا منها ما ذكرنا تأنيسا بأحوال المتقين، وتنبيها على بعض مقامات المتبصرين، فافهم.

الفائدة العاشرة: يمكن أن يكون قوله سبحانه وتعالى: {إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف} أن يكون المراد الطائف ها هنا طائف الهاجس أو الخاطر الوارد من وجود النفس بإلقاء الشيطان.

وسمي طيفا لأنه يطيف بالقلب، وتفسره القراءة الأخرى: {إذا مسهم طائف من الشيطان}.

فتكون إحدى القراءتين مفسرة للأخرى، والهاجس يطيف بالقلب، فان وجد له مسلكا بثلمه، يجدها في سور مقام اليقين. دخل وإلا ذهب.

رعاية الله لمن وجهوا هممهم إليه

↑↑

ومثل مقامات اليقين، ونور القين، الجامع لها كالأسوار المحيطة بالبلدة وقلاعها، فالأسوار هي الأنوار، وقلاعها هي مقامات اليقين التي هي دائرة بمدينة القلب، فمن أحاط بقلبه سور يقينه، وصحح مقاماته التي هي أسوار الأنوار، كالقلاع، فليس

للشيطان إليه سبيل، ولا له في داره مقيل.

ألم تسمع قوله تعالى: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان} . أي لأنهم قد صححوا العبودية لي، فلا هم لحكمي منازعون، ولا في تدبيري متعرضون، بل علي متوكلون، والي مستسلمون، فلذلك قام لهم الحق سبحانه بالرعاية والنصر والحماية، ووجهوا هممهم إليه، فكفاهم من دونه.

قيل لبعض العارفين كيف مجاهدتك للشيطان؟ ↑↑

قال وما الشيطان؟ نحن قوم تصرفنا إلى الله تعالى، فكفانا من دونه. وسمعت شيخنا أبا العباس رحمه الله تعالى يقول: (لما قال الحق تعالى: إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، فقوم فهموا من هذا الخطاب: أن الله طالبهم بعداوة الشيطان فصرفوا هممهم إلى عداوته، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب.

وقوم فهموا من ذلك: {إن الشيطان لكم عدو} أي وأنا لكم حبيب، فاشتغلوا بمحبة الله فكفاهم من دونه، ثم ذكر الحكاية المتقدمة. فإن استعاذوا من الشيطان، فلأجل أن الله تعالى أمرهم بذلك، لا لأنهم يشهدون أن لغير الله من الحكم شيئا معه، وكيف يشهدون لغيره حكما معه، وهم يسمعونه يقول:

{إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه} .

وقال سبحانه وتعالى: {إن كيد الشيطان كان ضعيفا} .

وقال عز وجل: {إن عبادي ليس لك عليهم سلطان}.

وقال سبحانه وتعالى: {انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون}.

وقال تعالى: {من يتوكل على الله فهو حسبه}.

وقال الله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}.

وقال: {وكان حقا علينا نصر المؤمنين}.

فهذه الآيات ونظائرها قوت قلوب المؤمنين ونصرتهم النصر المبين فان استعاذوا من الشيطان فبأمره، وان استولوا بنور الإيمان عليه فبوجود نصره، وان سلموا من كيده لهم فبتأييده وبره. ⮅

قال الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى:

(اجتمعت برجل في سياحتي فأوصاني، فقال لي: ليس شيء في الأقوال أعون على الأفعال من لا حول ولا قوة إلا بالله، وليس في الأفعال أعون من الفرار إلى الله والاعتصام بالله.

ثم قال: بسم الله، فررت إلى الله، واعتصمت بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن يغفر الذنوب إلا الله.

بسم الله: قول باللسان، صدر عن القلب.

ففروا إلى الله، وصف الروح والسر.

واعتصمت بالله، وصف العقل والنفس.

ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلف الملك والأمر.

ومن يغفر الذنوب إلا الله.

رب أعوذ بك من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين.

ثم يقول للشيطان هذا علم الله فيك، وبالله آمنت، وعليه توكلت، وأعوذ بالله منك، ولولا ما أمرني ما استعذت منك، ومن أنت حتى أستعيذ بالله منك.

فقد فهمت رحمك الله أن الشيطان أحقر في قلوبهم من أن يضيفوا إليه قدرة، أو ينسبوا له إرادة.

وسر الحكمة في إيجاد الشيطان، أن يكون مظهرا ينسب إليه سباب العصيان، ووجود الكفران والغفلة والنسيان ألم تسمع قوله: {وما أنسانيه إلا الشيطان}. و {هذا من عمل الشيطان}. ⇈

فكان سر إيجاده ليمسح فيه أوساخ النسب، ولذلك قال بعض العارفين: (الشيطان منديل هذه الدار، يمسح به وسخ المعاصي، وكل قبيح وخبيث، إن الله تعالى لو شاء أن لا يعصى لما خلق إبليس.

وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى: الشيطان كالذكر والنفس كالأنثى، وحدوث الذنب بينهما كحدوث الولد بين الأب والأم لا أنها أوجداه، ولكن عنهما كان ظهوره.

ومعنى كلام الشيخ هذا، أنه كما لا يشك عاقل أن الولد ليس من خلق الأب والأم

ولا من إيجادهما ونسب إليهما لظهوره عنهما كذلك لا يشك مؤمن، أن المعصية ليست من خلق الشيطان والنفس بل كانت عنهما لا منهما، فلظهورها عنهما نسبت إليهما. ⇈

فنسبة المعصية إلى الشيطان والنفس نسبة إضافية وإسناد، ونسبتها إلى الله نسبة خلق وإيجاد، كما أنه خالق الطاعة بفضله، كذلك هو خالق المعصية بعدله.

{قل كل من عند الله، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا}.

وقال الله تعالى: {والله خالق كل شيء}.

وقال سبحانه وتعالى: {هل من خالق غير الله}.

وقال سبحانه وتعالى: {أفمن يخلق، كمن لا يخلق، أفلا تذكرون}.

والآية القاصمة للمبتدعة المدعين، أن الله لا يخلق الطاعة، ولا يخلق المعصية قوله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}.

فإن قالوا: قد قال الله تعالى: {إن الله لا يأمر بالفحشاء}.

الجواب فالأمر غير القضاء. ⇈

فإن قالوا: قد قال الله تعالى: {وما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك}.

الجواب: فهو على هذا التفصيل، تعليم للعباد التأدب معه، فأمرنا أن نضيف المحاسن إليه، لأنها اللائقة بوجوده، والمساوئ إلينا، لأنها اللائقة بوجودنا، قياما بحسن الأدب

كما قال الخضر عليه السلام: {فأردت أن أعيبها}.

وقال: {فأراد ربك أن يبلغا أشدهما}.

وقال إبراهيم عليه السلام: {وإذا مرضت فهو يشفين}.

ولم يقل الخضر: (فأراد ربك أن يعبها، كما قال فأراد ربك أن يبلغا أشدهما).

فأضاف العيب إلى نفسه، والمحاسن إلى سيده، وكذلك إبراهيم عليه السلام لم يقل:

فإذا أمرضني فهو يشفيني، بل قال: إذا مرضت فهو يشفين. ⮅

فأضاف المرض إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، مع إن الله تعالى هو فاعل ذلك حقيقة وخالقه.

فقوله تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله} أي خلقا وإيجادا.

{وما أصابك من سيئة فمن نفسك} أي إضافة وإسنادا.

كما قال عليه السلام (الخير بيديك، والشر ليس إليك).

فقد علم عليه السلام، أن الله خالق للخير والشر، والنفع والضر ولكن التزم أدب التعبير فقال:

(الخير بيديك والشر ليس إليك) على ما بيناه فافهم.

فإن قالوا: إن الحق سبحانه وتعالى، منزه عن أن يخلق المعصية؟

(الجواب) قلنا: تعالى الله أن يكون في ملكه ما لا يريد فافهم هدانا الله وإياك إلى الصراط المستقيم، وأقامنا على الدين القويم بفضله.